تأثير الدين في المدنية

أهمُّ المبادئ التي تسير عليها الأمم، وتُعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة، المبادئ الدينية ؛ وقد كانت على الدوام أهمَّ عنصر في حياة الأمم ، وهي لذلك أهمُّ عنصر في تاريخهـــا . فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظمَ الآثار هو قيامُ الديانات وسقوطُها . وأوّلُ المسائل الأساسية ، في الازمان الغابرة وفي الازمان الحاضرة ، المسائلُ الدينية . ولو ان الانسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظمَ الحوادث التي تمَّت فوق وجه الارض منذ ظهرت المدنيات الاولى

لا ينبغي لنا أن ننسى أنَّ جميع النظامات السياسية والتدبيرات الاجتماعيـة قامت ، منذ بداية التاريخ ، على معتقدات دينية ، وأن الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية ، وأنَّ الدّين أسرع موثّر في الاخلاق لا يدانيهِ موثّر اللهمَّ الاَّ الحب ؛ والحب دينٌ ، الاّ أنهُ دِين ذاتيٌّ غير دائم . واذا أردت ان تعرف على أي حال تكون الامة التي اهتـاجها خيالهُا فانظرْ الى فتوحات العرب والحروب الصليبية والاضطهـاد الاندلسي وحال انكلترا أيام « البوريتيين » و « سانت بارتلمي » في فرنسا وحروب الثورة الفرنساوية . الاّ أن للأوهام سحراً مستمرًّا شديدَ التأثير يتغير بهِ المزاج العقلي تغيراً كلياً . خَلَقَ الانسانُ الآلهةَ ولكنها ما لبثت ان استعبدتهُ. وانها بنتُ الأمل لا بنتُ الخوف كما وصفها «لوقريس» لذلك كان تأثيرها سرمديًّا . لقد كان من تأثيرها فيهِ أن جعلت عقله متشبعاً بفكرة السعادة فامتازت بذلك على كل موثّر سواها ، وقصرت الفلسفة عن ادراك هذه الغاية حتى الآن

نتيجةُ كل حضارةٍ ان لم نقل غايتها ، وكلِّ فلسفة ، وكلِّ دين ، تكوينُ حالاتٍ عقلية خاصة ، بعضهايقتضي السعادة ، وبعضها لايقتضيها . وترجع السعادة

الى أحوال النفس اكثر مما ترجع الى الاحوال الخارجة عنها . فلربما كانت الضحايا فوق مواقدها أسعد من قاتليها . وكم فالح ارض بيديه يقضمُ الكسرة مفروكةً بالثوم أسعدُ بكثيرٍ من موسر متدفق الثروة تكاثفت حولَهُ الهموم

ومن دواعي الأسف أنَّ الحضارة في هذا الزمان خلقت للانسان جمعاً من الحاجات ، ولم تُعطهِ وسائلَ دَفعها ، فتولَّدَ من ذلك عدمُ الرضاء في النفوس . قالوا الحضارة بنت الرقيّ . نعم وهي أمُّ الاشتراكية وأمُّ الفوضى . وهما صوتان مريعانِ تصيح بهما جموعٌ قلَّ ايمانها فاستولى اليأس على قلوبها . أين حال الأوروبي الذي تولاّه القلق ، وهاجت اعصابهُ وأصبح غير راضٍ بحظهِ ، من حال الشرقي الراضي بما قدر له . انما الفرق بينهما في حالة النفس دون سواها . وانما يُغيّر الامة مَن يُغيّر من تَصوّرها ، ويجعلها تفكّرُ وتعمل غيرَ ما عملت

يجبُ على الهيئة ان تسعى في ايجادِ حال عقلية يكون فيها الفرد سعيداً والاّ فأجَلُ الامة قصير . فما قامت الأمم حتى الساعة الاّ متكئةً على خيالٍ فيهِ قوّةُ اجتذاب النفوس، وما سقطت واحدة منها الاّ بزوال سلطان هذا الخيال

من اكبرِ خطأ هذا الزمان اعتقادُ الناس انَّ النفس تجدُ السعادة في الاشياء الخارجة عنها. قل انَّ السعادة فينا ونحن الذين نوجدُها. وشذَّ ما كانت بعيدة عنا . انّا هدمنا خيال العصر الماضي فصرنا نرى انهُ لا حياة لنا من بعد هذا الخيال ، وانّا اذا لم نوفق الى الاستعاضة عنهُ فإنا هالكون

اكبرُ المحسنين لبني الانسان الذين يجب على الأمم ان تُقيمَ لهم أفخم التماثيل من الذهب الوهاج، هم اولئك السحَرَة القادرون الذين خلقوا لها الخيالات . اولئك يولدون احياناً بين البشر، ولكنهم لا يولدون الاّ قليلاً . أقاموا امامَ سيول الآمال الفانية — وهي الحقائق التي لا قدرة للانسان على معرفة غيرها ، وفي وجه هذه الدنيا العبوس الجامدة — حجاباً من الأوهام القوية فسروا عن الانسانية ، وستروا ما في

الحياة من غضاضة ومَضض ، وخلقوا جناتِ النعيم فنيطَ بها الرجاء وتوالت الاحلام

واذا رجعنا الى الجهة السياسية علمنا أيضاً كيف كان تأثيرُ المعتقداتِ شديداً . والسببُ في قوة الدين العظيمة كونهُ العاملَ الوحيدَ الذي تتوحَّد بهِ وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها . فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقامَ غيره من العناصر التي يتكوَّن منها روحُ الأمة والتي لا تنتج هذه النتيجة الاّ اذا أربت وتمَّ نضجها بالوراثة . نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلي بمجرَّد استيلاء دين على قلبها ؛ غير انَّ جميع القوى تتَّجه نحو غاية واحدة هي الانتصار للمعتقد الجديد ، وفي ذلك سرّ قوتها العظمى . لذلك تجد ان قيام الأمم بأعظم الأعمال كان في عصر هذا التطوُّر الوقتي أعني عصرَ تدينها ، وتأسيسَ اكبر الممالك التي ادهشت العالم كان في عصر تدينها . كذا اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلى الله عليهِ وسلم) فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء . وشادوا تلك الدولة الكبرى

وعليهِ يتضح انهُ كان للدّين شأن كبير في سياسة الأمم لأنهُ هو العامل الوحيد سريعُ التأثير في أخلاقها . نعم ان الآلهة ليسوا خالدين ، ولكنَّ المبدأ الديني باقٍ لا يزول . يفنى زماناً ، ثم ينشط متى ظهر ربّ جديد . وهو الذي استطاعت بهِ فرنسا وحدَها منذ قرن ان تقاوم اوروبا كلها. فعرف البشر مرَّة اخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية . لأن الافكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في الحقيقة ديناً جديداً نفخَ في الأمة من روحهِ فأنعشها . لكنَّ الآلهة التي برزت من خلال تلك المعتقدات كانت لطيفة المادة فلم تدم الاَّ قليلاً ؛ على ان سلطانها ، مدَّة وجودها ، كان سلطاناً كبيراً

بعد ذلك نقول أن قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة فانية . فقلما تدوم المعتقدات على قوَّتها الاولى زمناً يكفي لتغيير الخلق تغييراً تاماً . سببهُ انَّ قوَّة الاحلام لا تلبثُ أن تفتر ويرجع المأخوذُ بسكرتها بعض الرجوع الى اليقظة فتظهر حقيقة الخلق العتيق

يظهر على الدوام خُلق الأمة حتى وسلطان الدين في منتهى شدته فتراه في الصبغة التي انصبغ بها الدين عند الامة التي اعتنقتهُ ، وفي المظاهر التي تنشأ عنهُ . انظرْ الى الفرق العظيم بين المعتقَد الواحد في انكلترا واسبانيا وفرنسا تجد انهُ كان من المستحيل ظهور « البروتستنتية » في اسبانيـا أو رضى انكلترا باقامة الاضطهاد (محكمة التعذيب) بين ربوعها ؛ بل تأمل حال الأمم التي دانت بالبروتستنتية تظهر لك أخلاقها الأساسية الاولى بادية عليها ، وأنها بالرغم من افتتانها بمعتقداتهـا ، لا تزال محتفظة بمميزاتِ مزاجها العقلي ، اعني الاستقلالَ ومضاء العزيمة وتدبّرَ الامور قبل الأخذ بها وإباء الخنوع والاستذلال لسيّد يصدر في امره عن الهوى

يتولّد تاريخ الأمم السياسي والادبي والفنّي من معتقداتها ؛ الاّ ان هذه كما تؤثر في الخُلق تتأثر ايضاً بهِ . فمفاتيح حياة الامة خلقها ودينُها . والاول دائم من حيث صفاته الاولى ، وعدمُ تغيره هو السبب في وحدة تاريخ كل امة واطراده . أما المعتقدات فقـابلة للتغير . وتغييرُها هو السبب في انَّ التـاريخَ يحكي كثيراً من الانقلابات في الامم

اليوم تميل الامم القديمة الى السقوط . فهي تهتزّ من الوهن ، ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد . وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من ايمانها الذي قامت عليـهِ حتى الآن . فاذا فقدتهُ كله قامت حتماً مقامهُ حضارةٌ جديدة مؤسسة على معتقد جديد . لأن التاريخ يدلنا على ان الأممَ لا تحيا طويلاً بعد اختفاء معبوداتها ، وأنَّ الحضارات التي جاءت مع تلك المعبودات تذهب بذهابها . ألا لاشيء أفعل في التخريب من أثرِ معبودٍ يموت

احمد فتحي زغلول
وكيل نظارة الحقانيـة